الإدارة التربوية بالحب

نور مرهف الجزماتي
بكالوريوس تمويل ومصارف
طالبة دبلوم تربية
جامعة حماة

هبة مرهف الجزماتي

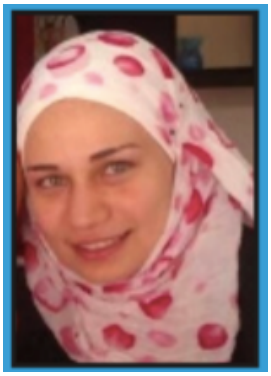

أقامَ اللهُ الكونَ على أساسٍ متينٍ ألا وهو "العدالةُ" ؛ لذا منحَ الإنسانَ عقلاً يُدركُ به الحوادثَ المحيطةَ، ومشاعرَ إنسانيَّةً تربطُ بين الناسِ بعلاقاتٍ تقومُ على التآخي والتقديرِ، ونبْذِ المشاعرِ السلبيّةِ التي تُؤدِّي إلى انتشارِ الكراهيةِ وتحطيمِ العلاقاتِ البشريةِ، وبالتالي تخريبِ الكونِ الذي وُجدَ الإنسانُ لعمارته.

وحبُّ الإنسانِ لأخيهِ الإنسانِ فطرةٌ زرعَها اللهُ تعالى في قلبِ الإنسانِ تُخالجُ رُوحَه وتُخالطُ مَشاعرَه.

هو عطاءٌ من ربٍّ كريمٍ أفاضَ به على عبادٍ يَعيشُونَ على هباتِ المولى سُبحانَه وتعالى التي تعدّدَتْ، وتنوَّعَتْ في الأرضِ، وفي السماءِ، وفي الوجهِ، وفي الجوفِ قال جلَّ جلالُه: " وإنْ تعدُّوا نعمَةَ اللهِ لا تُحصُوها"

وشاءتْ القُدرةُ الإلهيةُ أن يكونَ ميزانُ الحبِّ في القلبِ الذي يجبُ أن يُصبّ به مَنطقُ العقلِ للوُصولِ إلى الاتزانِ؛ ومن ثمَّ يحصلُ المحبُّ على حقوقِه مقابلَ تأديةِ واجباتِه تُجاهَ حبِّه.

وللحُبِّ أصنافٌ وأنماطٌ كَثيرةٌ تختلفُ عن المفهومِ الشائعِ في التفكيرِ السّطحيِّ الذي يجعلُها تلك العلاقةُ العاطفيّةُ بين شابٍّ وفتاةٍ.

فهناك الحبُّ بينَ الأصدقاءِ، والحبُّ بينَ أفرادِ الأسرةِ؛ كما أُدخلَ مبدأُ الحُبِّ إلى مجالاتِ العملِ ليُصبحَ إحدى الاستراتيجياتِ الفعَّالةِ لتسييرِ أمورِ العملِ وإتقانِها بتأثيرِ الحُبِّ؛ حيث يتجلَّى بعدَّةِ مُستوياتٍ؛ فهُناكَ الحُبُّ في المستوى الأفقيِّ الذي يكونُ بين زُملاءِ العملِ؛ ليتَعاونوا على إجراءِ ما عليهم بأفضلِ صُورةٍ، كما يسعَونَ لتطويرِ وتحسينِ عملِهم. والحبُّ في المستوى الشاقوليِّ الذي يكونُ بينَ العاملينَ ومَرؤوسيهم؛ ليعمَلوا بولاءٍ للمُنظَّمةِ التي ينتمونَ إليها، وكي يكون الحبُّ فعّالاً في ميدانِ العملِ ينبغي التكامُلُ بين المستويَينِ الأفقيِّ والشاقوليِّ.

يُعتبَرُ هذا الفنُّ واحداً من فُنونِ الإدارةِ النّاجحةِ، وأحدثَ ما تمَّ اكتشافُه من فنونٍ في هذا الميدانِ؛ نظراً لعُمقِ تأثيرِه على العاملينَ عندما يَسودُ فيما بينهُم؛ إذ يعملونَ بصدقٍ، ويَسعَونَ لإتقانِ عملِهم على أكملِ وَجْهٍ مُتأثِّرينَ

بحُبهُمْ لِقائدِهم؛ لكنَّ ذلك لا يعني أنَّهُم تجاوزُوا معهَ حُدودَهُم؛ بل أحبُّوهُ فقدَّرُوه، وعزروه فوَقَّرُوهُ للحدِّ الذي جَعلَهُم يَحرصونَ على إنجازِ العملِ الذي كُلِّفُوا به إرضاءً لِشُعورهِم بالحبِّ نَحوَه عليه الصَّلاةُ والسلامُ.

ورغمَ أنّ القائمينَ على تطويرِ الإدارةِ يظنُّونَ أنّ للحُبِّ أثراً في نجاحِ العملِ هو اكتشافٌ حديثٌ؛ إلاّ أنّ الملاحَظةَ والتَّمعُنَ في سيرةِ سيِّدنا مُحمَّدٍ صلّى اللهُ عليه وسلَّمَ تستدعي التوقُّفَ عند أُسلوبِ تعامُلِه مع أتْباعِه وأنْصارِه مع التأمُّلِ في هذا الأسلوب؛ فقد أجادَ وتفنَّنَ باستخدامِ هذا الفنِّ الإنسانيِّ البريء حتى وصلَ إلى أسمى دَرجاته، وأصبحَ أتباعُهُ مُستعدِّينَ لِبَذلِ ما لديهم ففَدَوهُ بأرواحهم، وأموالِهم، وأولادِهم؛ فداءً وتضحيةً للنبيِّ المعلِّمِ مُحمَّدٍ صلّى اللهُ عليه وآله وصحبه وسلَّمِ ولِهذا الدِّينِ الإسلاميِّ العظيمِ.

فأحبَّاءُ الرسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ دافعُوا عنه بأموالِهم وراحتِهم حتى آخرَ رَمَقٍ في حياتِهم، والمصطفى قائدٌ فذٌّ كان يَنزلُ مع مَرؤوسيه إلى ميادينِ العملِ والمعارك ليكونَ مُعيناً لهمْ لا عبئاً عليهم حتّى أنَّه تعرَّضَ للأذى وهو في خِضَمِّ المعارك ووسطَ الميدان؛ فلمْ يأخذْ دورَ الحاكمِ الآمرِ النّاهي من بُرجه العاجيِّ وقَصرِه الفرعونيِّ، ولم يعتمدْ أسلوبَ التعنيفِ والاستبدادِ والتّعنّتِ في اتّخاذِ القرارات؛ بل كان يسمعُ ويُشاركُ، يأخذُ ويُبادرُ، يُحاورُ ويُشاورُ ويقفُ بجانبهم في أوجِ مشاكلِهم العامَّةِ والخاصَّة، ويصرُّ على استخراجِ بذرةِ الإبداعِ والموهبةِ من عُقولِهم، ويعملُ على إنباتِها بالطريقةِ التي يراها مُناسبةً؛ فهو معلِّمٌ متكاملٌ في العلمِ والدِّينِ، في الخَلْقِ والخُلُقِ قالَ اللهُ تعالى: "وإنَّكَ لعَلَى خُلُقٍ عَظيمٍ".

وهذا ما يجبُ أن يتمتَّعَ به مُعلمُو الأجيالِ؛ إذْ عليهم أن يَكتشفُوا حقيقةَ كلِّ طفلٍ ليتعرَّفَ إلى دوره في بناءِ أمةٍ مثقفةٍ، وعلمها المتكامل بينهم، ويُنيرَ دَربَهُ ليعرفَ كيف يَعملُ على بناءِ أُمَّةٍ مُثقَّفَةٍ حصنُها عقيدتُها وأسوارُها شريعتُها؛ فالحبُّ وسيلةٌ ضروريةٌ في ميدانِ التعلُّمِ و التعليم، والطُّلَّابُ عندما يُحبُّونَ مُعلِّمُهم يسعَون لإرضائه، وبذلِ الجهدِ ليظهَروا بأنَّهُم الأفضلُ. وهو بدَورِه يُشجِّعُهم ويُقويِّهم، ويَغتَنِمُ حُبَّهُم ليُوجِّهَهُم ويُرشِدَهُم، ويضعُ كُلاًّ منهُم في الطريقِ الذي يراهُ صحيحاً ومُناسباً لِميولِه واتِّجاهاته وشخصيَّته وقُدراته بما يعودُ عليه بالنفعِ في حياته العمليةِ والسلوكية؛ لكنَّ الاستفادةَ من حُبِّ الطلابِ آليةٌ تحتاجُ إلى التطبيقِ بحَذَرٍ وانتباهٍ من قِبَلِ المعلِّمِ؛ فكثيراً ما يربَط حبُّ الطلابِ لِمُعلِّمِهم بتحصيلِهم العلميِّ، وفي هذه الحالةِ يتدخَّلُ المعلِّمُ وبالتعاونِ مع عائلاتِ الطلابِ بعدةِ أساليبَ لتَوعيتِهم بالفصلِ بين الحبِّ والفائدة؛ فالحبُّ علاقةٌ إنسانيّةٌ تقومُ على التقديرِ والودِّ، أمّا النتائجُ الدّراسيّةُ فهي مِقياسٌ لِسَعي الطالبِ في مَيدانِ عِلمِه؛ لذا يجبُ عدمُ الربطِ بين حُبِّ المدرِّسِ ونتائجِ تحصيلِهم العلميِّ الذي سيعودُ عليهم قبلَ مُعلِّمِهم.

إنَّ حياةَ الصحابةِ الأبرارِ مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ خيرُ درسٍ على الحُبِّ الوثيقِ والودِّ العميق؛ فقد تصدَّى أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنه (التلميذُ الفدائيُّ الأوّل للرسولِ مُحمَّدٍ عليه الصلاةُ والسلامُ) لعمليةِ الفصلِ بين الحُبِّ والمنفعةِ أمامَ الذينَ ربطُوا حبَّهُم للرسولِ مُحمَّدٍ بعبادتِهم للهِ تعالى؛ فخَرجَ إليهم حينَ وفاةِ الرسولِ الأعظمِ ليقولَ

قولَته المشهورةَ الخالدة: "مَن كانَ يعبدُ مُحمَّداً فإنّ مُحمَّداً قد ماتَ، ومَن كانَ يعبدُ اللهَ فإنّ اللهَ حيٌّ لا يَموتُ)؛ فالصحابةُ الكرامُ أحبُّوا الرَّسولَ الحبيبَ في الوقتِ الذي يجبُ أن يكونَ حبُّهُم الأوَّل للهِ تعالى الذي خَلَقَ سيِّدَنا مُحمَّداً، وحين غابَ ظنُّوا أنّ عليهم التخلِّي عمّا فعلُوه بتعليمٍ منهُ، فكانَ موقفُ أبي بكرٍ الفيصلَ الذي أخبرَهُم بأنّ على الإنسانِ السعيَ لإرضاءِ ربِّه وليسَ مُعلِّمه؛ لذلك يُخطِئ الطلابُ الذين يُحبُّونَ المعلِّمَ وينسَونَ أنّه لولا تعلمُّهُم لما وُجدَ المعلِّمُ.

كما يجبُ على المعلِّمِ أن يكونَ مُتفهِّماً وواعياً لأثرِه عندَ الطلاب، وبالتالي عليه ألاّ ينقلَ الأمورَ السلبيةَ لهم؛ وذلكَ بتأثيرِ حالتِه النفسيةِ والإحباطاتِ التي تُواجِهه من جهاتٍ مختلفة؛ كإداريينَ، وعائلاتِ الطلاب، وتدخُّلاتٍ بسَيرِ العمليةِ التعليميةِ والتي تُوجَّهُ له بشكلٍ خاطئ ومُستفزٍ؛ لذا لا بُدَّ أن يتمتَّعَ المعلِّمُ بالمرونةِ الكافيةِ والتفكيرِ الواعي القادرِ على مُواجهةِ هذه السلبياتِ وتحويلِها لدافعٍ إيجابيٍّ بإثباتِ جدارةٍ عاليةٍ ومُتابعةٍ ما يؤمنُ به ويعلمُ أنّه الصوابُ ليُكْمِلَ مسيرتَه التربويةَ التعليميةَ كما كان المعلِّمُ الأوَّلُ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلَّم الذي واجهَ الكثيرَ الكثيرَ من الأمورِ السلبيةِ، وتصدَّى لها بالعقلِ والحكمةِ والصبرِ والتحمُّلِ مع قلبٍ مُفعَمٍ بالحبِّ لبني الإنسانِ الذين خلقهُم اللهُ تعالى لإعمارِ دنيا فانيةٍ، تلك المصاعبُ التي لا تُقارَنُ بجبالٍ ممَّا يتعرَّضُ له المعلِّمونَ الآن، ولكنّه تابعَ طريقَه مُؤمناً باللهِ مُعتزَّاً به؛ فقد كان النّبيُّ المختارُ أكثرَ النّاسِ تبسُّماً وهو أثقلُ البشرِ همّاً. فلَم تُوقفْهُ المصائبُ، ولم تُثبِّطْهُ العَقباتُ، ولم تَلِنْ قَناتهُ كثرةُ الأذى الذي تعرّضَ له من كفَّارِ قريشٍ، ونالَ من جَسَدِه وعِرضِه من غيرِ أنْ يُلامسَ رُوحَه وقلبَه الكبيرَ؛ لكنّه أكملَ ما أُمرَ به، وما يعلمُ أنّه الخيرُ له وللناسِ أجمعينَ. تحيةً إلى أعظمِ المعلِّمينَ مُحمَّدٍ رسولِ اللهِ عليه وعلى آلِه وصحبِه وسلَّم في يومِ هِجْرتِه النبويَّةِ العَطِرةِ التي تدعُونا إلى هَجْرِ الباطلِ وإصلاحِ ما فسدَ؛ لنكونَ أحبابَ رسولِ اللهِ مُحمَّدٍ قلباً وقالَباً، قولاً وفعلاً،سلوكاً ومسيرةً ومَنهَجَ حَياةٍ؛ فهو القُدوة العُظمى والأسوةُ الحسنةُ على مَرِّ الدُّهورِ وتعاقُبِ الأزمانِ لبني الإنسانِ.